بلاغة الخطاب وإبلاغية التأويل في محاورات أبي حيان التوحيدي

الأستاذ : عبد القادر العربي
قسم اللغة والأدب العربي .كلية الآداب واللغات
جامعة المسيلة – الجزائر

الملخص :

استطاع التوحيدي أن يذيب الحدود الجدلية بين الفكر والمتعة في خط واحد وذلك ليس باليسير ؛ فهو العالم المفكر والمسامر الذكي مع الإجادة في الإرسال بمسحة من الروح الطلقة ويجمع بين أطراف المتناقضات المعقدة بسلاسة ويسر دون الإحساس بالصعوبة فهو فعلا أدرك طبيعة الرسالة التي يحملها فأبدع في إرسائها فكريا وأدبيا، وقلّما نجد هذه الثنائية في كتبنا التراثية الإسلامية والعربية عموما. حيث بنى فكرَهُ على التنوع الثقافي والحضاري جاء بناء لمسؤولية معرفية تفرض ذاتها علينا وعلى كل باحث يقف على المختلف الذي يفيد ؛ لأنّ التوحيدي يبدو عليه الاطلاع على التراث اليوناني المترجم وخاصة فكرة الدراما والصراع فيها ومقابل ذلك احترام الذوق العربي الذي لم يعتد على الصراعات الفنية والمعقدة وخاصة في وصف الأعماق البشرية لشديدة التشابك وأيضا تماشيا مع نظرة المجتمع العربي للقاضي والذي لم يضعه في منزلة مرموقة ، والفعل الذي قام به التوحيدي لم ير في نفسه إلا صورة العلوم الرفيعة الفلسفية والأدبية ، والصوفية تجلب في طرحه القضايا الفكرية ذات الصبغة الجادّة ، وهي قضايا عقلية تحوي ثنائية جدلية بين المتناقضات وسعى بكل ما يملك إلى توضيح التعايش وأنه لا حدود جدلية متنافرة بين أقطاب القضية الواحدة وأوجد صيغة توفيقية تسعى إلى التصالح والتناغم وترى العالم من خلال رؤيا متكاملة فكان عرضه بين الإقناع والإمتاع معا، فيترك المتلقي ممتلئا بالإعجاب به بين العقل والوجدان وهو أوفى قناعاته . إنّ أبا حيان مثقف موهوب بكل ما تحمل هاتان الكلمتان من معان والموهوب دائما شديد الاعتزاز بنفسه لأنه يؤمن بأهميته وامتيازه ، إنّ هذا الصراع بين ما يشعر به الرجل وما اضطرته الأيام إلى سلوكه ، كان يؤرق حياته وكان يؤلمه ولا نستطيع أن نفصل الرجل عن

عصره ؛ ذلك العصر الذي اتسم بالتذلل والخضوع لأصحاب الشأن ، كان التوحيدي يعاني من المسألة ويطلب من الله أن يغنيه عن الناس مما يدلّ على أنّه كان متألما مزدريا لنفسه التي تمدّ يدها طالبة الرِّفد عند من لا يستحقون ، وكان يؤلمه أن يستخدم أدبه وسيلة للثراء أو جمع المال.

استطاع التوحيدي أن يوفق بين متضادين (الجدّية في الطرح والمرونة في الخطاب) ، كما استطاع أن يذيب الحدود الجدلية بين الفكر والمتعة في خط واحد وذلك ليس باليسير ؛ فهو العالم المفكر والمسامر الذكي مع الإجادة في الإرسال بمسحة من الروح الطلقة ويجمع بين أطراف المتناقضات المعقدة بسلاسة ويسر دون الإحساس بالصعوبة فهو فعلا أدرك طبيعة الرسالة التي يحملها فأبدع في إرسائها فكريا وأدبيا ، وقلّما نجد هذه الثنائية في كتبنا التراثية الإسلامية والعربية عموما.

فكيف حقق التوحيدي مشروع المثاقفة ؟ وما هي الإبلاغية التي حققها بين شفهية السرد وكتابة الخطاب ؟ وهل يمكننا تحقيق الطرح التوحيدي في مسارنا الفكري للخروج بعقل منتج للمعرفة ؟

أولا: **معنى الإبلاغية:**

لقد خلّف لنا أجدادنا تركة خطابية معتبرة وهي التي أحدثت تراكما منذ العصور المبكرة ، وتحديدا قبل الإسلام ، وعليه فإنّ الخطاب بين النثر والشعر لدى الأمة العربية والإسلامية غني وله وزنه الحضاري والفكري كفن قائم بذاته ، وعلى كل حال فإن البلاغيين العرب جعلوا من الخطابة كل قول نثرا كان أو شعرا يعتمد القياس المنطقي ، ويكون له مقدمة ونتيجة أمآ الغاية من هذا القول فهي إقناع مخاطب " ما" بفكرة أو برأي " ما" فهو محاولة لإقناع المخاطب سواء كان فردا أو جماعة ، وتسمى في منطق البلاغيين (الأقاويل الخطابية) وهي على رأيهم إما :

أ- أقاويل معتمدة على قياس منطقي أو استدلال أو محاكمة عقلية وهي غالبا ما تكون نثرية.

ب- وأخرى تعتمد التخييل والمحاكاة وهي كلمات فيها إيقاع لكنه يستطيع وحده أن يحرك الانفعالات النفسية ويثيرها. وفي هذا الإطار ينصح أن تكون الجمل" ذات أجزاء لا طويلة ولا قصيرة يسهل النطق بها ؛ لأنها لو كانت طويلة مجّها السامع ولم يتابعها وإذا جاءته جدّ قصيرة فاجأته فجعلته يضيق بها كأنما تعثّر فكره "[1]، وإذا اعتبرنا أنّ الخطيب مثله مثل الشاعر عليه ألاّ يتفوه إلاّ بما يكون أهلا للاعتقاد به فإن ثمة مهمة ملقاة على عاتقه وهي التمييز بين الممكن وغير الممكن ، والهدف من وراء ذلك كله هو إقناع المخاطب بقضية أو برأي ما ، ولن يحصل له مثل هذا ما لم يشحن عباراته بالإيقاع وليس بالوزن الشعري هذا الجانب هو التحليل الخطابي الأرسطي لأنّ هذا الفيلسوف أثرى أوساط المثقفين والنقاد والبلاغيين العرب القدماء ويعتبر الناقد العربي حازم القرطاجني في مقدمة هؤلاء ، لكن مقابل التأثر كان التأثير والتطوير والتعديل على هذه القوانين بالشكل الذي يتلاءم وشخصيته البلاغية العربية ؛ لأنّ الثقافة العربية منفتحة على الثقافات الحية وعليه تكون حالة من المثاقفة، تتسم بالفعل الإيجابي للفكر في تفاعله مع غيره .

ثانيا : **عناصر التجديد الفكري عند أبي حيان التوحيدي:**

معظم مؤلفات التوحيدي محاورات أو مسامرات أو مقابسات أو مناظرات وهي نقل عن كتب ثقافة وقضايا العصر والخروج بنص أساسه مادة شفوية، ونقله إلى الكتابة تحمل صفات الإبداع رغم أنه ذو توجه يراعى فيه مسايرة القوانين الرسمية التي تضعها الدولة ، لأنّ الآخر قد يكون مختلفا عنه فكريا ، والملاحظ أن التوحيدي لم يترك المسألة نهبا للظنون ؛ فالتوحيدي أثناء تعليقاته على النصوص تصرّف فيها ؛ فنصَّ على هذا أو نوّه به وما أُشكِلَ عليه ذَكَرَهُ فيها شفهية والتزام واحترام الأصل إنه المنطق الفاصل بين الحدث والعلامة .

الحدث (النص الشفهي المسامرة) العلامة كتابة النص الإبداعي)

علاقة جدلية متواترة في نسق توحيدي فهو يحاول إبعاد الفوضى على نظام الكتابة في مؤلفه (الإمتاع والمؤانسة)، فهويعرفماهو له وما هو عليه وهذا هو رأي التوحيدي في المبدع فكان هو أنموذجا لذلك ، إنه يعتز بذاته وإمكاناته وقضيته ودوره في الحياة التي يحياها ، فهو يخرج من دائرة القيد إلى الآخر إلى عالمه هو وإلى أفق الكتابة والتي وضع هو تقنياتها .

(إذا جرى الأمر على غير ما كان في حسابي وَتلَّبسَ بظني ، فإني أهدي ذلك كله بغثاثتة وسمانته وحلاوته ومرارته ورقته وخثارته في هذا المكان ، ثم أنَت أبصرُ بعد ذلك في كتمانه وإفشائه وحفظه وإضاعته وستره وإشاعته و والله ما أرى هذا أمرا صعبا إذ وصل إلى مرادك . . .) [2].

إنه فرق واضح بين المفردات والمترادفات ؛ يقول أمين العالم عن التوحيدي : " إنّ أسئلة أبي حيان في هوا مله على تنوعها وعمقها هي أسئلة ثقافية معرفية فلسفية مفارقة "[3] استطاع أن يرتفع من الواقع إلى ملامسة الإشكال المعرفي الفلسفي الذي كان صدى للواقع الموضوعي السائد إنه يَعرِضُ لهذا الزخم الفكري والجدلي ليثير الأفكار ويوجهها وجهات جديدة تنويرية ؛ فالتوحيدي تصل معه في نهاية التساؤل والإجابة إلى رؤية جديدة بتعقل وروية وإبداع وعليه نلمس اختلاف الفكر التوحيدي عن غيره وذلك بأفضليته المبنية على المقاربة الفلسفية في طرح المشاكل المشتركة بين الأفكار المتعارفة ، وهو في ذلك يقترب من ابن رشد –فيلسوف قرطبة– إنه ينتصر للعقل لا للوجدان .

1– الاختيار :

اختار التوحيدي من نصوص الآخرين بعد أن رسم لنفسه رؤية خاصة لقضايا الإنسان والكون ، ووظف هذه الاختيارات ليبين هذه الرؤى وعليه يصور الناس بكل ما يحملون من سلبيات وإيجابيات ضمن مواقف حية .

والمتتبع لهذا الفكر يرى انتماءه إلى مدرسة (السجستاني التوفيقية) لقد استطاع أن يتعايش مع عالم يبدو مليئا بالمتناقضات والمتنافرات ، اختياره للمحاورة و المقابسة أمر جدُّ صائب لأنه عمل الرأي والرأي الآخر في أسلوب فني وحرية فكرية بروح علمية

تنظر إلى العالم بصورة عميقة وشاملة ، فكان تنويريا بروح الثورة والتغير الاجتماعي على الأوضاع الفاسدة فأوضح ماهو حسن وغَفِل عنه الناس وابرز ماهو قبيح ولم يظهر للناس فكانت بذلك حالة من التجديد الفكري وانتباه المتلقي المثقف إليه، والمقصود بالمتلقي النوعية والذي له معاناة التوحيدي وليس المثقف الذي يستهلك معرفة لا غير بل المنتج للمعرفة وهي "نخبة النخبة " فلجأ إلى ما تسميه الباحثة المصرية (أماني فؤاد) إلى (النقد بصورة مبدعة)[4] ؛ ففي "الإمتاع والمؤانسة " يفاجئك بذلك الاختصار المصوغ ببنية جمالية تشعر حينها بأنك أمام فنان يحسن صنعته والاختيار عنده مصير وليس مجازفة ومسؤولية معرفية.

2- التوازن :

التوحيدي المفكر والمؤلف في كل حالاته (مُحاورا ، سائلا ، مجيبا ، ناقلا عن غيره . . .) هو **مُجَدِّدٌ ومبتكر** لنصوصه وعليه فهو يوازن بين ذاكرة متجددة وبين فعل الابتكار والإبداع .

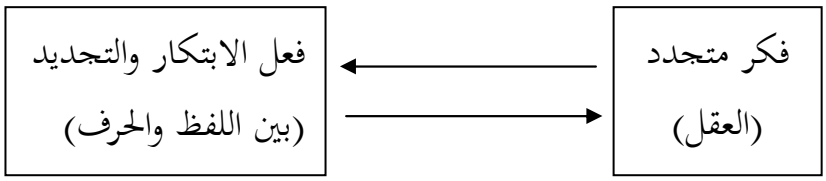

لقد تفطّن إلى أنّ بث المعلومة المباشرة تقبل على النفس البشرية ، وأنّ العقل يكون أشد تأثيرا إذا ألمحت ؛ وفي ثنايا الموضوعات أشرت إلى ما أردت، من هذا المنطلق يتعامل فكر التوحيدي وخاصة في الليلة الرابعة والثلاثين من الإمتاع والمؤانسة ، النص يوفق فيه بين الملك والرعية ويوفق فيه بين الآراء الفلسفية والصوفية والحكماء الذين خَبروا الحياة إنه متآلف مع كل الاختلاف .

يقول التوحيدي في نص بليغ : " أماَ ترى طبيعتي في تحفظي أماَ ترى رقدتي في تيقظي ؟ أماَ ترى تفرقي في تجمعي ؟ أماَ ترى غُصَّتي في إساغتي ؟ أما ترى دعائي

لغيري مع قلة إجابتي ؟ أما ترى ضلالي في اهتدائي ؟ أما ترى رشدي في غيّه أنت ترى ضعفي في قوتي . . . "[5].

إنه نص يدل على ثنائية في الذات الإنسانية يجمع بينها ويوازن بين المؤمن اليائس والواعي والذي يعرف معنى الأمر ؛ إنه الجمع بين ما يبدو متباعدا متعارضا إبداعا فالحقيقة والتعبير الجميل عنها قلما يجتمعان ، فمع التوحيدي أصبحت الحقيقة جميلة والمشاعر الإنسانية المعقدة واضحة .

3- استحداث المعرفة :

بالعودة إلى عصر التوحيدي وبالضبط عشرة قرون نلمس حال مفكرٍ أخذ على عاتقه بناء عقل جديد إنه وجه المثقف حديث مع كل الأزمنة لأنه يريد أن يضع مستحدثا من المعرفة أساسه الحوار لقد وجه العقل إلى تصور منفتح على الآخر إنه طموح مفكر يريد تحقيق معادلة الإنسان المتناسق معرفيا، لقد آمن التوحيدي بمقولة شيخه الجاحظ : " عقل غيرك تزيده في عقلك " بتنوع وتعدد الآراء وتطبيقا للحكمة القائلة " من شاور الناس شاركهم عقولهم " وتبني الآراء دون العودة للآخرين أمر فيه من الانتحار العقلي البطيء للمعرفة، هكذا هو حديث الذات لنفسها أو الآخر فيها ، إنها محاولة التجاوز المعرفي ومحاولة لتحقيق رؤية للآتي المفارق لأنّ التوحيدي يقول بأنه عندما سعى إليها لم يجدها إنها ذات مستحدثة تؤكد عجزها عن إدراك كنه المستعصي ؛ لأننا لا نعرف إلا أنفسنا وما يحيرنا إلا ماهو فينا ، فالتوحيدي يوجه القارئ إلى فهم ذاته وإدراك كنهها وأبعادها ، هذا رغم أنه قد " سعى إلى هدم ذاته بدليل إحراق كتبه " وهو الذي فتح بأسئلته المنغلق في الفكر العربي وهو الذي أقنع العقل بأنّ اللفظ والمعنى وجهان لصحيفة واحدة وما الحدث الذي ذكرته وهو هدم ذاته إلا موقف في لحظة يأس من واقع حاول مرارا وتكرارا أن يغير من مساره إلى ماهو إيجابي ، وهو ليس بالحدث الغريب فطالما وصلت هذه العقول إلى هذه الحالة في خضم أوضاع اجتماعية لا تستجيب لنداء العقل بل يحركها الوجدان لا غير وهو رد فعل طبيعي ولا ينقص من قيمة تفكيره الإبداعي الذي نحتاجه في كل مراحلنا التاريخية ، لعلنا نجد أنفسنا يوما أمام تفعيل

حقيقي للعقل ، " إنه لا يقبل حصر العقل في معنى "العقال " الذي اشتق منه إنه كلام ملفق ودعوة متهافتة ، إنما يدل الاشتقاق من الكلمة على جهة واحدة في المطلوب المتنازع لأنه مأخوذ من تركيب الحروف وتأليف اللفظ وصورة المسموع ، ففي اللغات الأخرى العقل مأخوذ من صفاته لأنّ العقل يعقل ؛ أي يمنع ويحبس ، وهو أيضا يُسرح وينوع ولكن في حال دون حال وأمر دون أمر ومكان دون مكان وزمان دون زمان "[6]، إنّ ميزة تفكيره الجرأة والحيوية والتجديد والصراحة فيستعمل لذلك كل طاقاته الفكرية واللغوية وحضوره المتواصل بكل تفاصيله الذوقية والجمالية .

ثالثا – تشخيص الفكرة:

بين المجرد والحس نفسا إبداعيا إنّ التوحيدي قد جعل للمعنوي واقعا نفسيا وجسديا وقيمة بيانية يعيشها الإنسان .

الفكرة ——استنطاقها——◄ تفاعل زمكاني

لجأ التوحيدي إلى التشخيص الفعلي للألفاظ وإنزال المجرد إلى مسرح الواقع فصنع لها ملامح ضمن صراعات درامية إنه يعرف معنى الحداثة في الفن فيسرد حشدا من الألفاظ ليعبر عن واقع الأحداث ومجرياتها ، والملاحظ أنّ التوحيدي لا يَألُ جهدا إذا أراد أن يعبر عن قضية يعانيها مبدع ، ليعبر عنها بكل الطرق فهو يشخص الغربة الذاتية من خلال تصويره للواقع المجبر على التأقلم معه ، فذلك مبين في واقع الناس البسطاء الذين يحكي عنهم فهو يجسد الحدث ليجعل المتلقي يعيش بحواسه الخمسة " البصر ، السمع ، الشم ، اللمس ، التذوق " ، إنه يستبطن الذات ويستقصي جوانب النفس فعندما ينفصل ما بداخل الإنسان ليصير أكثر من واحد يصير أشخاصا كلنا يعلم أنّ لكل شخص دائرة خاصة، ، له طبيعته الخاصة وله هدف مغاير للآخرين وله توجهات وأساليب مختلفة ، التي لا بد أن تختلف مع الآخرين وفي وجود حوار حتما هناك صراع ، إنّ تلك التعدّدية لا ينفيها الارتباط بل قد يزداد الصراع أكثر في بوتقة واحدة، والإبداع

هنا في العمق الذي يمتد توغلا في ذات من الثراء إن كان هناك توافقا بين الإنسان ووجوهه المختلفة وذلك في اختيار التوحيدي للفظ " البينونة"، فهو يحمل هذين الوجهين إذا تبيّن من الفرقة ومن الوصل وعليه فهناك دائرة واسعة للنفس البشرية وتحويل المعنوي إلى كائنات حية تفكر ، تتنفس ، تتصارع ، إنّ التشخيص هنا يتحرك بالأفكار في عوالم أخرى أكثر حياة فيحوّل الصراع بين القيم إلى صراع بين البشر داخل الشخص الواحد ، وللمواقف أحيانا نبض آخر للحوار ، للإيماءة وهو الامتزاج مع الحدث فيتحرك فيك كل الحسّ ، **إنّ قلم التوحيدي حيٌّ** وليست الأقلام كلها حيّة وقادرة على التشخيص السليم والصحيح هذا القلم ينقل اللغة إلى أحوال أخرى فالمعلومة حكاية نعيشها ، إنّ حرفة التوحيدي توليدية للأفكار ، وهو أسلوب سقراط اليوناني ؛ فيبدو أنه مُطّلعٌ على طريقة الحوار السقراطية ، لقد حرّك تلك القضايا الجدلية وجعلها تتقابل فكان واضحا في مخططه تشخيص بيّنٌ للأفكار .

رابعا– تنوع الدلالة:

التوحيدي لغوي محنك له كثافة في دلالة اللغة من جميع ما تحتويه من خصائص الترادف والتقابل والتناغم والتآلف ، وفي أغلب الحالات يتعامل التوحيدي مع توظيف الأداة لأنه يجد في الجمل المسجوعة نغما يَطرَبُ له وصياغة تكفل لتعبيره مناخا نفسيا يتقبل تلك المعاني الحساسة والنفسية التي تتصل بالعبادة ؛ أمآ التنغيم الذي سعى إليه كان على مستوى " العقل ، القلب ، والأذن " غالبا ينتهي بمَدٍّ يليه سكون مثل قوله : " ويَقَظَتي جاريةٌ على الرسوم والعادات وأحلامي عارية من كل ماله حاصلٌ ، وثبات نفسي رهينة بالسيئات "[7].

والملفت للأمر أنه أدرك إنّ الإيقاع الواحد المتكرر حينما يكثر ويتوالى استعماله لفترة يعتاده القارئ ومن ثَمَّ يفقد دهشته ويترك لخياله نوعا من الرتابة قد تبعد العقل عن المادة الإبداعية ؛ إنه يستمر في الإثارة ليحفز المتلقي **ويجعله دائما ينتظرالآتي وما سيقال** ، وبدايات الجمل عنده تميل إلى مقدار أعظم من الانتظام الإيقاعي منها في

أواسط الجمل والهدف منها تقوية الجمل بواسطة صناعة صوتية اشتقاقية إنها مفردة لغوية ودلالية لا متناهية المعنى دقيقة اللفظ .

خامسا –الليل ومشروع المثاقفة :

اختيار زمن الليل في مسامرة التوحيدي بعد عناء النهار فكانت وحدة تقسيم أحاديثه وسردها هي **الليلة**

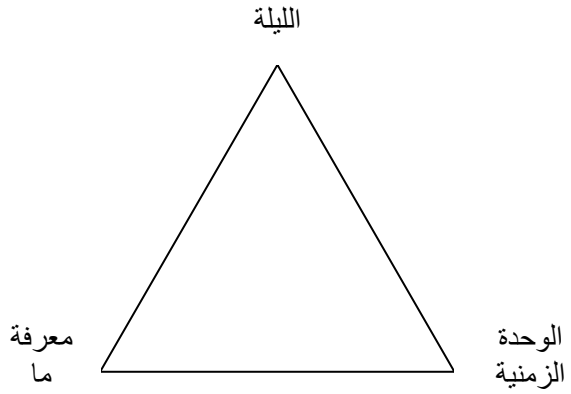

إنه مشروع مثاقفة ومشافهة على غرار ألف ليلة وليلة وإذا كانت الليلة تبدأ من الغروب إلى الفجر فإنّ المسامرة وقت يبدأ وينتهي قبل أن يخلُد الإنسان إلى النوم والراحة هذا الإطار الزمني حضاري وثقافي ، والملاحظ أنّ زمن الزمن قد يمتد ساعات من الليل مع العلم أنّ الوزير يشير إلى أنّ الليلة السادسة عشرة امتدت إلى الثلث الأخير من الليل وتبدو أطولها أماّ باقي الليالي فيستعمل لفظ " غلبه النعاس " ، إنّ نظام المسامرة الليلية والمشافهة يحقق التحصيل وتبليغ الدرس وتجسيد الأنس عبر التداعيات المعرفية وتحقيق الإمتاع والتثقيف، إنّ المتتبع لعدد الليالي يلاحظ غياب الليلة الحادية عشرة ، والثانية عشرة إضافة إلى حذف ليلة أخرى لأنّ العدد أربعين ليلة دوّنَها في سبعا وثلاثين ليلة ؛ بمعنى طرأ دمج ثلاث ليال في باقي العدد بين المشافهة والكتابة .

فيكون بهذا مجموع الليالي على المستوى الكتابي سبعا وثلاثين ليلة ، أمّا على مستوى الخطاب الشفوي الذي جسدته المسامرة التي أجريت بين التوحيدي والوزير أربعون ليلة ويؤكد هذا الاضطراب في ترقيم الليالي انتقال الأحاديث من عالم الحدث

الشفوي إلى الحدث الكتابي الذي فرض أهم آلياته وشروطه ، والملاحظ أنّ أطول ليلة هي الليلة 17 ففيها 47صفحة وأقصرها الليلة 28 ففيها 12سطرا ، لكن بين الأطول والأقصر ذكاءٌ حادٌ وطرح جادٌ وتفعيل للفكرة رغم عامل الكتابة الذي كان تحت وصاية الوسيط فالتوحيدي وظّف ذاكرته الشفوية مماّ أكسب الليالي والكتابة حشدا كبيرا من الموضوعات ، يقول التوحيدي : " والكتاب يتصفح أكثر من تصفح الخطاب لأنّ الكاتب مختار والمخاطب مضطر. . . "[8]، وبين الاختيار والاضطرار هناك فعل ثقافي وفكري وهو مشروع يجعل ماهو ثقافي وسياسي متقابلان لكن بإمكانهما أن يتجاورا وأن يتفقا في حالات ولا يتنافرا تماما وتلكم هي حال العلاقة قديما وحديثا سواء في زمن التوحيدي أو في زمن غيره لكن التوحيدي استطاع بما يملك من الجرأة الفكرية أن يلامس خطوط هذه الممنوعات التي لا يجرأ على الحديث عنها وليس كتابتها إلاّ من كانت له هذه القوة الإرادية والحس الفكري في التعامل مع مثل هذه المقاربات الفكرية والسياسية التي تحدّد مشروعا يولد من رحم الظلام ولعله يرى النور يوما ما .

سادسا– نسقيتة بنسقية الراهن :

إذًا كان التوحيدي وفياً لأستاذه الجاحظ فلم يخرج عن المألوف في ذلك كله رسم أسلوبا له توحيديا بامتياز ، فالتنوع جليٌ في موضوعات النصوص وعدد الألسن بين السياسي والزعيم والراوي والشاعر والإمام واللغوي والفيلسوف . . ، فهو يرصد ويعلق في كثافة معرفية وثقافيةٍ وفق خطة إبداعية خاصة به اعتمدت ما يلي :

1- استنطق فيها التراث بمعناه الشامل من خلال توظيفه لنصوص الآخرين ، ومن خلالها عالج قضايا عصره والتي كانت تَشغلُه وهو أمر يمكننا أن نستفيد منه نحن في القضايا الراهنة وخاصة في عملية التوفيق بين الموروث والفكر الجديد .

2- يتميز بالإحاطة والإثراء والشمول فيسقط الأقنعة عن قضايا كثيرة طالما كانت قبله من " الطابوهات والممنوعات " التي لا يجرؤ أحد على التحدث فيها وحولها فكان أسلوب الحوار والمناظرة من أنسب المناهج لإخراجها ومعالجتها رغم أنّ البعض يعيب على التوحيدي تلك الجرأة التي لم تخدمه في حالات كثيرة .

3- إنه ممثل " للنسقية الأدبية " وهي فلسفة لها مكانتها بين الفلسفات الوجودية لأنها سلّطت الضوء على حياة الناس رابطة بذلك الفكر باللغة والقول بالبلاغة وأبدع في الأخذ بالمقطعية في البيت الشعري . . والآية في القرآن . . والحديث في السنة والفتوى في الفقه والشطحة في التصوف والمقابسة في الفلسفة والخط في الرسم .

4- لم يكتف التوحيدي بالمعرفة المتداولة انطلاقا من إيمانه بالمنهج التساؤلي القائم على العلم والعقل .

5- لم يجعل اللغة غاية في حد ذاتها بل طوّع الإنشاء لتصبح لغة تواصل " بين الذات والآخر " لأنها معنية بترجمة الأفكار التي تربط الإنسان بعالمه وقضاياه .

6- التوحيدي في خشيته من المراجعة يتوارى خلف اللفظ من التحايل الذكي في عرض الفكرة وفق لغة راقية .

نسقية التوحيدي تستحق الإطلاع عليها وبعثها من جديد في ظل التأثر الناجم حاليا من ألوان كثيرة للمدارس والآراء الغربية الحديثة والمعاصرة وحتى اليونانية القديمة لما في تراثنا من كنوز فكرية تستحق نفض الغبار عنها وإعادتها إلى الساحة من جديد لمعالجة مشاكلنا الفكرية واللغوية وتحقيق فعل التواصل بين الأجيال . لقد أصبح أبا حيان غريبا " وأغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه "، والغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله ، الغريب من إذا أقبل لم يُوسع له ، وإذا أعرض لم يُسأل عنه ، الغريب من إذا سكت لم يُبدأ ، الغريب من إذا عطس لم يشمَّت وإن مرض لم يُتفقد ، الغريب من إذا زار أُغلق دونه الباب وإذا استأذن لم يُرفع له الحجاب . "

إن المعاملة الخشنة التي تلقاها أبا حيان من معاصريه جعلته يرفض هذا المجتمع رفضا تاما ، وقد عبّر عن هذا الرفض بقيامه بإحراق كتبه ، وعلّل قيامه بهذا العمل الغريب بقوله " فشُقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنّسون عِرضي إذا نظروا إليها ، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفّحوها ويتراءون نقصي وعيي من أجلها فإن قلت ولِم تَسِمهم بسوء الظن وتقرعُ جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابي لك أن عيابي منهم في الحياة

هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وِداد وما ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ". 10

إن سخطه على الناس امتد إلى سخطه على نفسه فلجأ إلى جلد ذاته وتعذيبها وفضحها وتقريعها ، حيث قال مخاطبا نفسه : " ظاهرُك أعبَثُ من باطنك وباطنك أخبث من ظاهرك ، وإشارتك أنكد من عبارتك وعبارتك أفسد من إشارتك وكلك مستغيث من بعضك ، وبعضك هارب من كلك " .

وقد حفلت مؤلفات أبي حيان بذم الناس لأنهم يُظهرون خلاف ما يُبطنون ، فهم يذمون البخل مع غلبتهم عليه ، ويمدحون الكرم مع ابتعادهم عنه ، فهو كثير السؤال عن التباين الحاد بين الأقوال والأفعال ، فنجده قد لجأ إلى كشف الأقنعة عن تلك الوجوه التي كانت تتخذ من التمسك بالأعراف سِتارا تُخفي خلفه الرياء والكذب والنفاق .

فالتوحيدي شخصية غير عادية ونمطها غير مألوف لعامة المثقفين في عصره ، ولا لخاصتهم أيضا ؛ فهو كثير التساؤل يثير المشكلات ويستثير الأفكار ، ويدفع بالأسئلة في محاوراته ومناقشاته مع علماء عصره ومفكريه بشكل غير مسبوق ، إنّ هذه الروح المتسائلة وراء الإبداع الذي تميز به التوحيدي ، إنّ الميل الغالب هو عادة قبول الموقف والتكيف معه بوصفه ضرورة قد قضى بها ، لكن الإبداع في كل صورة لا يحيا في عالم سُدَّت دروبه بإجابات قديمة سابقة لكنه يشق طرقا جديدة في العالم بإثارته لأسئلة جديدة تتيح للإنسان أن يكون أعمق فهما للعالم وأشد سيطرة عليه .

وربما يكون السؤال أفضل من الإجابة ؛ لأنه يوقظ وعي البشر ويحفزهم على اقتراح إجابات أخرى ، ويعقد حوارا حولها تلك هي خلفية الإبداع الذي تميز به التوحيدي ، إنّ الناظر في آثار أبي حيان لا يحتاج إلى كبير جهد ليدرك أنه أمام روايات ناسخ ورّاق وجامع محقق وصيرفي ناقد جيد الاختيار أكثر مما هو بإزاء مبدع مبتكر ، ويمكن اختصار جهد وفكر التوحيدي في نقاط نراها مهمة وهي كالآتي :

– لقد كان الأداء اللغوي السليم الذي ابتكره التوحيدي بنقل الأفكار الحضارية الجديدة حثا ثقافيا منشودا لتلتئم ظاهرة قصور الأداء اللغوي عند الفلاسفة والمناطقة ، ولقد كان ذلك مثلبة وموضع نقص فكان الدور الذي قام به التوحيدي هو التدقيق في أداء المعاني وصقلها وفصاحتها ، وقد أدّى مهمته بكل تفوق وانبهار .

– كان التوحيدي فنانا في اختيار أصوله الفلسفية التي تناسب دوره الفكري فقد برع في إفراز هذه القضايا دون تفصيل ، وأخذ نتائج الفلاسفة ظلالا ومراجعا لفكره ونصوصه ، لا يفسرها بل يوحى بها ويستنير بنتائجها دون أن يعوزه ذكر تفاصيله العملية الدقيقة التي تتصف بالجفاف وهي مناط اهتمام المتخصص فقط.

– كان التوحيدي مبدعا حاذقا في إلمامه بكل الاتجاهات الفلسفية وقد قام بعرضها في صورها المختلفة ؛ لأنه أدرك دوره التراثي والحضاري وكونه مؤرخا ومستوعبا لكل هذا الزخم الحضاري .

– لقد صاغ التوحيدي الأسس الفلسفية لتفسير العملية الإبداعية في نصوص نقدية تصف تلك العملية في صورة واقعية عملية .

– كان التوحيدي حاذقا ماهرا في فهم النفس ودراستها بعناية فائقة دراسة خبير عارف ومدرك لذلك استطاع أن يوازن ويوفق بين متغيراتها وطوابقها المتعددة .

– فاق التوحيدي أقرانه من أبناء زمانه إذ نقل النقد التطبيقي واقعا وذلك من خلال وصفه وتعليقه على إبداعات معاصريه ، فكان التكامل ما بين الفلسفة والنقد والذوق الصوفي هو الصورة النهائية لإبداعات التوحيدي .

– استطاع التوحيدي أن يُوجد صلة بين الفلسفة والفن ، وهو يرى ضرورة اجتماع الإحساس العقلي والشعور الحسي لمد الجسور بين الفن والعقل وبين النثر والشعر ، وبين المبدع وفعل إبداعه وبين الأفكار وحيويتها ، بين المعاني وموسيقيتها ، فكان فهمه للغة على أساس أنها أداة يملكها ولا تملكه يُطوّعِها كيفما يرتضي لتحمل معانيه في أوضح وأبهى صورها .

– وُفِّقَ التوحيدي في تشخيص أفكاره وذلك من خلال أدوات فنية مختلفة حسب ما ورد في موسوعته الرائدة"الإمتاع والمؤانسة" ليهب الأفكار المجردة الفلسفية أو الصوفية حياة وعمقا لتؤدي رسالة حضارية وفكرية فتقرب الأفكار إلى العقول المفكرة وفي صورة فنية رائقة تسر الناظرين .

– التوحيدي شاهد على عصره لا شاهد رصد فقط وهو فلتة من فلتات الزمان التي قلما يجود بها ، لقد كان ثمرة عصر و زبدة أيام ووديعة تجارب . إنه قيمة فكرية ينبغي دراسة فكره ومناقشة آرائه حتى وإن كانت متعارضة معنا ، فالفكر لا يتطور إلا بالصدمات الحادة أو الانقطاعات المعرفية التي ينتقل بها من حال إلى حال ، ويتقدم بها من عهد إلى عهد ، هذه الصدمات أو الانقطاعات تضع فكر الأمة في مواجهة حضوره وتقسمه على ذاته ، وتثير التوتر بين مكوناته وذلك على نحو تواجه به عناصر الجديد الواعد عناصر القديم الجامد ، فتحيل الثبات إلى تغير والرضى بما هو قائم إلى بحث عن المخالف الذي يفتح أفق الاحتمالات الخلاقة للتقدم والتطور ، ولكي يدخل الفكر إلى هذا الحال من عملية التغير والتحوّل لا بد له من تضافر الشروط الخارجية والداخلية ، الشروط التي تتحقق بها اللحظة الزمنية التي يتحول بها الفكر في التاريخ وبالتاريخ ، ولا تنفصل الشروط الموضوعية لهذه اللحظة عن الدور الذي تقوم به الذات الفاعلة في الفكر ، وهي ذات موصوفة بصيغة المفرد لكنها تنطوي على معنى الجمع وتشير إلى ما تبذله الطليعة التي لا تتوقف عن مساءلة القائم والمتوارث والمتعارف عليه وتسعى إلى اكتشاف ما يظل في حاجة إلى الكشف ، وتتكون هذه الطليعة من الأفراد المتميزين الذين يستبدلون حرية الفكر بضرورته ، وابتكاريه الرؤية بتقليديتها تماما كما يستبدلون الشك بالتصديق ، والتمرد الخلاّق بالإذعان إلى الإتباع ؛ هؤلاء الأفراد المتميزون هم الروّاد الذين يأخذون على عاتقهم مواجهة مجتمعاتهم في شجاعة كي يزيحوا نقاب التخلف ، متحملين في صلابة وعزم كل هجوم واضطهاد ، والتوحيدي واحد من هؤلاء الرواد المتميزين واجه مجتمعه مواجهة شجاعة في مجالات كثيرة ولم يأبه بالهجوم أو الاضطهاد بل واصل رسالته وتحدى خصومه وسخر من أعدائه وظل نصيرا للجديد

الواعد في مجالات الثقافة والفكر ملحا على أنّ أوّل شرط من شروط التقدم هو الوعي بالتخلف وإدراك أسبابه ومبرراته ومواجهة الأصول التي تدعمه ومجاوزته بما ينقضه ويستبدل به نقائض واعدة ، ولم يتوان التوحيدي في بذل كل ما يستطيع من جهد في هذا السبيل مهما تعددت مجالاته ؛ فالتوحيدي قيمة فكرية أهملناها وطمسنا أفكارها وعندما تخلو الحياة من القيمة تغيض معاني الحب والتعاطف والتعاون والإخاء والإيثار والمساواة ، وتهجرنا مشاعر الكرامة والعزة والنخوة ونستبدل بمبدأ الرغبة الخلاقة مبدأ الواقع الكئيب بما يفرضه من شروط مخيفة ومدمرة ، وفي الوقت ذاته تتقلص لهفة المعرفة وشوق التجريب والتطلع اللاهب إلى اكتشاف ما يظل في حاجة إلى الكشف فتتقهقر المعرفة الإنسانية باحتمالات ثرائها ونمائها وتقدمها وتصعد جهالة التوحش مقترنة بجدب النفوس وخواء الأرواح وتدني العقول مخلفة الفوضى التي تنتشر كالوباء أو الدمار الذي لا يُبقي ولا يذر ، ويغيب معنى الجمال في النظام أو حضور العقل في الوجود ويغدو العقل مغتربا منبوذا مُطاردا محكوما عليه بالنفي أو الاستئصال مجبرا على أن يترك مكانه لأدنى الغرائز وأحط الشهوات ، فتنمحي دوافع التمدن وأحلام الصعود الدائم في سلم الحضارة الذي لا نهاية لوعود تقدمه أو صعوده وتسقط من حياتنا مبادئ الحرية والعدالة والظلم والتخلف مقرونة بالشر والقمع والقهر والرعب ، منتجة كل لوازم القبح والرداءة والتدني الذي لا نهاية لإمكانات تسفُّله ، ولذلك فإننا عندما نحتفي بقيمة أو قامة سامقة في مجال الفكر والثقافة فإننا نحتفي بالحياة في أصفى حالاتها وفي أرقى أشكال تقدمها الصاعد إلى ما لانهاية ، لأن الاحتفاء بالقيمة احتفاء بالإنسان بوصفه الحضور الحر الفاعل في الوجود ؛ الحضور الذي يستبدل الحرية بالضرورة والعدل بالظلم والتقدم بالتخلف والاستنارة بالإظلام والحق بالباطل والجمال بالقبح والخير بالشر وكل المعاني السامية بنقائضها الخسيسة التي تهدّد الحياة وتسلبها أروع وأنبل وأطهر ما فيها، هذا الحضور الحر الفاعل في الوجود هو الفضاء الإبداعي للإنسان الذي لا يكف عن صنع العالم الأجمل على عينه ، ولا يرى للعالم الأجمل نهاية بل أفقا مفتوحا على كل الاحتمالات الواعدة بالمزيد من تجليات الحق والخير والجمال.

خاتمة:

إطلالتنا مع أبي حيان التوحيدي الذي بنى فكرَهُ على التنوع الثقافي والحضاري جاء بناء لمسؤولية معرفية تفرض ذاتها علينا وعلى كل باحث يقف على المختلف الذي يفيد ؛ لأنّ التوحيدي يبدو عليه الاطلاع على التراث اليوناني المترجم وخاصة فكرة الدراما والصراع فيها ومقابل ذلك احترام الذوق العربي الذي لم يعتد على الصراعات الفنية والمعقدة وخاصة في وصف الأعماق البشرية لشديدة التشابك وأيضا تماشيا مع نظرة المجتمع العربي للقاضي والذي لم يضعه في منزلة مرموقة ، والفعل الذي قام به التوحيدي لم ير في نفسه إلا صورة العلوم الرفيعة الفلسفية والأدبية ، والصوفية تجلب في طرحه القضايا الفكرية ذات الصبغة الجادّة ، وهي قضايا عقلية تحوي ثنائية جدلية بين المتناقضات وسعى بكل ما يملك إلى توضيح التعايش وأنه لا حدود جدلية متنافرة بين أقطاب القضية الواحدة وأوجد صيغة توفيقية تسعى إلى التصالح والتناغم وترى العالم من خلال رؤيا متكاملة فكان عرضه بين الإقناع والإمتاع معا ، فيترك المتلقي ممتلئا بالإعجاب به بين العقل والوجدان وهو أوفى قناعاته . إنّ أبا حيان مثقف موهوب بكل ما تحمل هاتان الكلمتان من معان والموهوب دائما شديد الاعتزاز بنفسه لأنه يؤمن بأهميته وامتيازه ، إنّ هذا الصراع بين ما يشعر به الرجل وما اضطرته الأيام إلى سلوكه ، كان يؤرق حياته وكان يؤلمه ولا نستطيع أن نفصل الرجل عن عصره ؛ ذلك العصر الذي اتسم بالتذلل والخضوع لأصحاب الشأن ، كان التوحيدي يعاني من المسألة ويطلب من الله أن يغنيه عن الناس مما يدلّ على أنّه كان متألما مزدريا لنفسه التي تمدّ يدها طالبة الرِّفد عند من لا يستحقون ، وكان يؤلمه أن يستخدم أدبه وسيلة للثراء أو جمع المال ، وتسخير قلمه لمدح من لا يستحق المدح ومن هنا فقد توجه إلى خالقه تعالى بالدعاء قائلا : " اللهم صن وجوهنا باليسار ولا تذلها بالإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ونسأل شرّار خلقك فنُبتلى بحمد من أعطى وذم من منع ، وأنت من دونهما دليل الإعطاء بيدك خزائن الأرض والسماء "[9]. إنّ اعتداده بنفسه وثقافته واضطراره للاسترزاق وإحساسه بوطأة ذلك ، ولّد في نفسه نفورا من الناس؛ لأنهم لم يُقدِّروه حق

قدره فزهد في كل شيء حتى كتبه ضَنَّ بها على مجتمع لا يقدّر العلم فأحرقها ، وارتباط العلم بالمال أو انفصالهما مسألة أرّقت أبا حيّان فما فائدة العلم إذا لم يِغنِ صاحبه ؟ لقد علّل النفس وحاول تقبل الواقع وفلسفته لصالحه فقرر أنّ العلم والمال قلّما يجتمعان ويصطلحان ، فنراه يُعلي من شأن العلم بقوله " فالعلم نفسي والمال جسدي ؛ والعلم أكثر خصوصية بالإنسان من المال ، وآفات المال كثيرة وسريعة ؛ لأنك لا ترى عالما سُرِق علمه وتُرِك فقيرا منه ، وقد رأيت جماعة سُرقت أموالهم ونُهبت وأخذت وبقي أصحابها محتاجين لا حيلة لهم ، والعلم يزكو على الإنفاق ويصحب صاحبه على الإملاق ويهدي إلى القناعة ويسبل الستر على الفاقة، وما هكذا المال. . . ". ولما لم يحقق له العلم ما أراد أعلن انعزاله وصرح شاكيا في مجتمع يقدّر الناس بما يملكون لا بما يعملون ، لقد درس التوحيدي الفلسفة وعلم الكلام واستطاع أن يجادل متكلمي عصره وأن يدحض حججهم بالبرهان القاطع ومزج الفلسفة بالأدب ومن هنا فقد أطلق عليه ياقوت الحموي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " . *(10)

الإحالات والهوامش :

1- عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، تحقيق محمود شاكر ، ط ، 1987 ، ص، 99 ، القاهرة ، مصر.

2- أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ج 1 ، ص، 12، (د، ت) .

3- محمود أمين العالم ، تساؤلات حول الهوامل والشوامل ، مجلة فصول المصرية ، مجلد 14 ، العدد3 ، 1996. ص، 25

4- أماني فؤاد ، الإبداع في تراث أبي حيان التوحيدي ونقده ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ص85، ط ، 2008 .

5- أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية ، تحقيق وداد قاضي ، دار القاضي للثقافة ، بيروت، لبنان ، ط، 1982 ، ص103-104 .

6- أبو حيان التوحيدي ، المقابسات ، تحقيق محمد توفيق حسين ، دار الآداب ، بيروت ، 1989 ، ص95.

7- الإمتاع والمؤانسة ، ص134 .

8- نفس المصدر ص65.

9 - أبو حيان التوحيدي ، مثالب الوزيرين ، تحقيق ونشر ، إبراهيم الكيلاني ، ص، 31 .

*/ معجم البلدان / الجزء 7 ص 120 دار العلم للملايين .

10/ أبو حيان التوحيدي , المقابسات , تح : محمد توفيق حسين دار الآداب , بيروت ط2 , 1989ص 122.